الثنائية اللغوية وظاهرة التحول اللغوي، قراءة فيما وراء اللغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي

د. بدر بن سالم القطيطي

مقدمة العمل

اللغة كائن حي يؤثر ويتأثر؛ وأكثر اللغات البشرية يعيش بين صراعات لغوية مبعثها وجود ظاهرتين لغويتين في البيئة اللغوية الواحدة، حيث تمثل الأولى وجود كيان آخر أو أكثر ينافس بقاء هذه اللغة في هذه البيئة، وهو ما يُعْرف في علم اللغة الاجتماعي بالازدواجية اللغوية. أما الظاهرة الأخرى فقد تأتي من داخل اللغة الواحدة حيث يستخدم متكلموها - بجانبها - لسانا آخر في مقام واحد، وهذا ما يعرف في علم اللغة الاجتماعي بالثنائية اللغوية.

لهاتين الظاهرتين اللغويتين خطر على العربية الفصحى وهوية المجتمع، وثقافته، فالأمر المشترك بين الازدواجية اللغوية والثنائية هو عملية التحول اللغوي الذي يحدث في الموقف الواحد أو المرحلة الواحدة، وإن كانت الازدواجية قد تفرض، لكن الثنائية نابعة من منتج النص نفسه.

في ضوء اللسانيات الاجتماعية يسعى البحث الموسوم بـ(الثنائية اللغوية وظاهرة التحول اللغوي، قراءة فيما وراء اللغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي) إلى بيان أسباب التحول اللغوي، ومعرفة أشكاله، والوقوف على أثره في المتلقي، وقراءة أثره في اللغة، وما وراءها من هوية ثقافية. ويحاول البحث بعد التعريف بالظاهرة تقديم جملة من الحلول للتخلص منها في مدارسنا، ومجتمعنا، أو التقليل من حدوث هذه الظاهرة.

سيتكئ العمل في قراءة ظاهرة التحول اللغوي على المنهج الوظيفي الذي يقول عنه اللغوي الفرنسي أندريه مارتينه (Andre Martine) مؤسس المنهج الوظيفي (Functionalism)١ الذي ينظر إلى اللغة في إطار استخدامها الفعلي في المجتمع، انطلاقا من وظائفها، فالوظيفيون يجعلون وظيفة اللغة الإنسانية الأساس التي تؤديها في المجتمع المتمثلة بالتواصل، والتفاهم المتبادل في إطار الجماعة اللغوية؛ فهي ظاهرة اجتماعية، يوظفها الأفراد لأداء المعاني بما يحقق أهدافهم وغاياتهم، فهو لا يكتفي بالنظر اللغوي الخالص في عملية التحليل، فهو يتناول الوظائف العامة والخاصة التي يؤديها كل تركيب لغوي، ثم إيجاد الصيغ اللغوية والتراكيب التي يمكن أن تُعَبِّر عن تلك الوظائف ضمن إطار كل من المفاهيم أو المعاني العامة في التحليل اللغوي.

يشير أندريه مارتينه (Andre Martine) مؤسس النظرية الألسنية الوظيفية-كما ينقل عنه نادر سراج ٢-إلى أن هذه النظرية تبدو - غالبا - كأنها ما تناقض الرأي الشائع، وتعاكسه، ففي شأن اللغة الإنسانية ترسخت لدينا العادة في أن نظهر كمعياريين من خلال قولنا: لا تقل كذا، بل قل كذا. وقد عُدَّ معلمو المدارس ومدونو الأحداث اليومية-طويلا - هم الوحيدين المؤهلين لقول الكلمة الفصل في هذا المجال، يتمسكون بشكل رئيس بفكرة انتقاء الأشكال التي يستخدمها المواطن العادي، وذلك باسم الاستعمال الحسن والجيد. فالألسني الوظيفي لا ينقد أحدا، بل هو يكتشف ما نسمعه فعليا -إذا توخينا حسن الإصغاء- أ صحيحا كان هذا الشيء أم خطأ ؟

الفصل الأول: إطار الدراسة النظري.

علم اللغة الاجتماعي (Sociolinguistic) بين تراثنا اللغوي والدرس اللغوي الحديث.

يقول الدوز هكسلي (Aldous Huxley): "إن الثقافة البشرية، والسلوك الاجتماعي، والتفكير لا توجد في غياب

اللغة"٣؛ فلا حضارة إنسانية دون نهضة لغوية، فلا بِنَاء للغة، ولا لكيانها بمعزل عن المجتمع الإنساني، ولا بناء للكيان الإنساني بمعزل عنها، وهذا يؤكد أن "اللغة ظاهرة إنسانية نشأت، وتطورت بتطور الإنسان ذاته، ونمت بنمو حضارته، وأنها قبل أن تكون كلمات، وأصواتًا، وصرفًا، ونحوًا، ظاهرة اجتماعية فكرية، ونفسية، لا كيان لها إلا في ذهن الأفراد"٤، فجوهرها -على رأي أوتو يسبرسن (Otto Jespersen)- نشاط إنساني٥، وهي "أول مؤسسة اجتماعية، وهي ما يميِّز الإنسان عن الحيوان، وما يميِّز الأمم في ما بينها"٦.

إن هذا القول يؤكد أن اللغة "لا توجد إلَّا بمقتضى نوع من التعاقد يكون بين أعضاء المجموعة البشرية الواحدة"٧؛ فاللغة من حيث حقيقتها تتصل بالعناصر أو المكونات الأساس الأربعة للإنسان ألا وهي: الميدان الفيزيقي، والميدان العضوي، والميدان النفسي، والميدان الروحي، واللغة-من حيث وظيفتها-تحمل هذه الأربعة جميعا على أن تتعاون فيما بينها تعاونا فعالا٨، وهذه الصفة المعقدة التي تتصف بها الظواهر اللغوية تجعل تحديد الظواهر التي يشتغل بها علم اللغة - تحديدا دقيقا - أمرا بالغ الصعوبة؛ فعلم اللغة يمتّ في العصر الحديث بصلات وثيقة إلى علوم أخرى، فهو يقتبس بعض طرائقها في معالجة الظواهر اللغوية المختلفة، لتحقيق فهم أعمق لأسرار اللغة، والوصول إلى نتائج أكثر دقة ومصداقية، بما وصلت إليه هذه العلوم والدراسات الحديثة من حقائق ونتائج علمية٩. ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية وحضارية، كان من أهم العلوم التي اتكأ عليها علم اللغة الحديث في معالجة مسائله اللغوية هو العلوم الاجتماعية، وما وصل إليه البحث الاجتماعي، وقد أطلقت تسميات عدة على دراسة القضايا اللغوية في ضوء العلوم الاجتماعية١٠.

أكَّد اللغويون العرب أن اللغة ظاهرة اجتماعية، فهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بثقافة الشعب الذي يتكلمها، فهي أهم مظاهر السلوك الاجتماعي، وأوضح سمات انتماء الفرد اجتماعيا، وأنَّ كلمات اللغة ترتبط بدلالات تستعمل وفقها في تعاملنا اليومي١١، فدراسة الألفاظ ودلالاتها على نحو دقيق لا تكون إلا في إطارها الاجتماعي والحضاري. والتَّغَيُّر اللغوي لا يُفسر تفسيرا كاملا إلا في ضوء الظروف الحضارية، والاجتماعية.

إلى جانب هذا يؤثر السياق الاجتماعية في مستويات اللغة، وتراكيبها، واختيار مفرداتها؛ ومن يقف على بعض الآيات القرآنية يجد الدقة اللغوية في استخدام المفردة القرآنية التي اخْتِيرَتْ؛ فجاءت مطابقة السياق الاجتماعي، فتلمح في قصة يوسف (u) لا يذكر اسم فرعون، ومع موسى (u) لا يذكر اسم العزيز، وهذا ما يؤكد دقة اختيار المفردة التي تناسب البعد الاجتماعي. ومن هذا ما جاء في وصف عصا موسى (u) بالثعبان دون غيرها من أوصاف الحيات، لأنَّ في مصر تسمى الحية العظيمة التي تهلك بني آدم والحيوان بالثعبان، فقد نقل الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) عن الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) قوله: "الثعابين لا تكون إلا بمصر، وإليها حول الله تعالى عصا موسى(u) قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾١٢ يعنى أنه حولها ثعبانا، والثعبان عجيب الشأن في إهلاك بنى آدم، فليس له عدو إلا النمس"١٣.

كان النظر فيما تعرفه العرب ويألفه سياقهم الاجتماعي باعثا على ترجيح قول على آخر؛ لذا أجازوا في (الْجَمَلُ) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾١٤، أحد أمرين:١٥

- الجمل زَوْجُ النَّاقَة، هو قول أبي زكريا الفراء (ت ٢٠٧ هـ) ١٦، وقد سئل ابن مسعود عن الجمل ، فقال : زوج الناقة.
- الجمل القَلْس وهو حبلٌ غليظ يُجمع من حبال كثيرة، فَيُفْتَل، وهو حبلُ السفينة (تؤيده قراءة ابن عباس الجُمَّل)، قال ابن عباس (t):"إنّ الله أحسنُ تشبيهًا من أن يُشَبِّه بالجمل"؛ يعني أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سَمّ الإبرة، والبعير لا يناسبه. إلا أن أكثر المفسرين أخذوا بالقول الأول، وإليه نميل، وبه نقول؛ لأنه المعروف عند العرب، والأسرع تبادرا إلى الذهن، و"قراءة العامّة أوقع؛ لأنّ سَم الإبرة مَثَلٌ في ضيق المسلك. يقال: أضيق من خرت الإبرة. وقالوا للدليل الماهر: خِرِّيت، للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر. والجمل مَثَلٌ في عظم الجرم، . . .، فقيل: لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدًا من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع، في ثقب الإبرة"١٧. قال السمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ):"الجَمَل قراءة العامة، وهو تشبيه في غاية الحسن؛ وذلك أن الجملَ أعظمُ حيوانٍ عند العرب، وأكبره

جثةً، وسمُّ الإبرة في غاية الضيق، فلما كان المَثَلُ يُضْرَب بعظَم هذا وكبره، وبضيق ذاك، حتى قيل: أضيقُ من خُرْتِ الإبرة"١٨. وهذا ما ذهب إليه ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) ١٩ فهو يرى أن المراد بالجمل البعير المعروف للعرب، ضُرِبَ به المثل؛ لأنه أشهر الأجسام في الضخامة في عرف العرب.

تأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ، كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾٢٠، حيث تلحظ في التشبيه دخول أداة التشبيه الكاف على القصر، ودخول (كَأَنَّ) - وهي الأقوى - على الجمال (النوق أو الحبال) وهي أصغر حجما، وأقل لونا من القصر. وفي التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيه من جهتين: من جهة العظمة، ومن جهة الطول في الهواء، والتشبيه بالجمالات تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظمة، والطول، والصفرة٢١، لهذا قد يُقَالُ -في غير القرآن- بضرورة تناسب الحجم مع قوة الأداة، ولكن الواقف على العرف الاجتماعي يلحظ أن الجمال هي المشاهدة أمام العرب، والحاضرة في سياقهم، وهي الأسبق إلى أذهانهم بلونها وحجمها؛ ففيه تخويف أكثر من استحضار صورة القصر.

إن هذه الدقة في اختيار الوحدة المعجمية في النص القرآني هو ما يعرف في الدرس التداولي بالمواضعة اللغوية، حيث أدرك اللغويون العرب -بثاقب بصرهم- هذه الحقيقة قبل أن تدركه التداولية في العصر الحديث؛ فهم يرون ضرورة تتحقق المواضعة اللغوية؛ لإنجاح الحدث اللغوي، وتتحقق هذه المواضعة بأن يتسالم المرسِل والمتلقي على دلالة معينة للعلامة اللغوية، لأن "الاتفاق في الشفرة اللغوية شرط لنجاح التفاعل"٢٢، فقرروا "أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأنها شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها، وأن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بوساطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يسمون كلا منها (مقاما)، فمقام الفخر غير مقام المدح، وهما يختلفان عن مقام الدعاء، أو الاستعطاف، أو التمني، أو الهجاء، وهلم جرا، وكان من رأي البلاغيين أن لكل مقام مقالا، لأن صورة المقال تختلف في نظر البلاغيين بحسب المقام"٢٣.

تمتد جذور دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع إلى تراثنا اللغوي القديم، فليس هذا العلم من ابتكار فترة الستينيات، فدراسة اللهجات أصيلة في التراث العربي، ومثلها الدراسات التي تتناول العلاقة بين معاني الكلمات والثقافات المختلفة، وهذه الدراسات كلها تقع في إطار علم اللغة الاجتماعي٢٤، حيث يرى هدسون (Hudson) أن علم اللغة الاجتماعي هو"دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع"٢٥، ويقول پول فابر وكريستيان:"إن علم الاجتماع اللغوي هو دراسة الوقائع اللسانية بوصفها علامات على الفوارق الاجتماعية"٢٦.

فعلى هذا ينبغي على المتكلم٢٧ أن يعرف أقدار المعاني فيوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وأقدار الحالات فيجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقالا، ويقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات، يقول الجاحظ: "كلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات"٢٨، فالحدث تفاعل لا يخضع لرغبة المتكلم فقط، بل لخصوصية المستمع كذلك، ووضعهما الاجتماعي والفكري٢٩، يقول شيشيرون (Ciceron): "إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات، أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكلم دائما بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل شيء، ولا لصالح أي شيء، عليه-إذن-لكي يكون بليغا أن يكون جديرا بأن يجعل لكل مقام مقالا لغويا ملائما له"٣٠. لذا يرى مالينوفسكي٣١ أنَّه من الضروري أن نهتم بما هو أكثر من السياق المصاحب النصوص، فمن الضروري ألا نهتم بما يحدث الآن فقط، بل نهتم كذلك بالخلفية الثقافية للمشتركين، ويعني بها كل التاريخ الثقافي الكامن في عقل المشتركين، والكامن في نوع النشاط الذي يمارسونه، لأن "أكثر الأشياء تحديدًا ووضوحًا قد يكون له جوانب أو وجوه عدة، غير أن وجهًا، أو جانبًا واحدًا فقط، هو الذي يناسب متكلمًا بعينه، أو موقفًا بالذات"٣٢.

تهتم الدراسات اللسانية الاجتماعية بمستويات اللغة المختلفة؛ لما لها من أهمية في قراءة الواقع الاجتماعي، ومعرفة البيئة الجغرافية؛ فيؤدي كل مستوى لغوي وظائف مختلفة في أفعال الفرد المؤكدة هويته، فقد يكون استخدام النطق دالا على الانتماء إلى أصل معين، أو الانتماء إلى مجموعة معينة٣٣، وهذا ما يراه السياق الثقافي، الذي يفرض على مستخدمي اللغة تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي تستخدم فيه الكلمة، فكلمة"(looking glass) تُعَدُّ في بريطانيا علامة على الطبقة الاجتماعية العليا بالنسبة لكلمة (mirror)، وكلمة (rich)

بالنسبة لـ(wealthy)، وكلمة (عقيلته) تعد في العربية المعاصرة علامة على الطبقة الاجتماعية المتميزة بالنسبة لكلمة (زوجته) مثلا"٣٤. لهذا "قد نستخدم الصرف والتراكيب والمفردات حتى نحدد مكانتنا الراهنة في المجتمع، مثل تحديد مقدار التعليم الذي تلقيناه"٣٥، فيصبح من السهل إدراك المستوى الثقافي باستخدام الوحدات المعجمية؛ لأن "انتقاء الوحدات المعجمية في تركيب بعينه يعكس عناصر مختلفة؛ استنادا إلى ماهية الوحدات المستخدمة، فإحدى هذه الوحدات قد تعكس -مثلا- رسمية الموقف، بينما تعكس الأخرى خبرة المتحدث، والمخاطب"٣٦.

يحرص عالم الاجتماع على إظهار الصلة بين تنظيم المرسال المعين بالتحليل اللساني، والوجهة أو المستوجبات الاجتماعية للمرسال عينه، فلو نظرنا إلى أبعاد عبارة (كم الساعة) الاجتماعية نجدها تصدر بين صديقين، وعبارة (كم الساعة، لوسمحت) تمثل طلبا من أقل إلى أعلى، وقد تحمل دلالة التواضع، من أجله "يركز عالم الاجتماع انتباهه على المتكلم كعضو في جماعة، وكشخص قد تميز لغته انتماءه العرقي، ووظيفته، ومستواه الاجتماعي، وانتماءه الطبقي"٣٧.

اشترط الأسلوبيون على الكاتب حتى يستطيع توصيل ما يجول في فكره إلى المتلقي، أن يعرف مع مَن يتكلم، وما هو مستواه الثقافي، والاجتماعي، والفكري، حتى إلى حد ما مستواه المالي، فعندما يخاطب الكاتب شخصا ذا سلطة تختلف ألفاظه، وكلماته، ومفرداته، بشكل مغاير تمامًا إذا كان يخاطب أحدا من أفراد الشعب، وكذلك عندما يخاطب العامل، يختلف عن المدير، أو صاحب الشركة، وينطبق ذلك على كل مستويات المجتمع، يقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ): "لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا ساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا إعرابيا، فإنَّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي"٣٨.

إن ما اشترطه الأسلوبيون هو ما يعرف في الدرس الحديث بالكفاية التبليغية التواصلية، التي تعني "القدرة على استعمال اللغة في الأحوال الخطابية، والأغراض المختلفة"٣٩؛ لأن هذه الكفاية التبليغية تؤخذ من وسائط عدة: معرفية، ونفسية، واجتماعية، وثقافية، بناء على البنية الاجتماعية التي يعيش فيها المتكلم٤٠، ومن ثم تساعد هذا المتكلم على تنويع صور الخطاب بما يلائم المقام، ويعبر عن الأغراض المختلفة.

يقول هايمز (Hymse):"لكي تتواصل مع الآخرين لا يكفيك أن تعرف اللغة، ونظامها، بل أن تعرف -أيضا- كيف تستعملها في سياقها الاجتماعي"٤١، فشرط "البلاغة والفصاحة حسن الموقع من نفوس الجمهور"٤٢؛ فالتحدث بأسلوب لا يتناسب والمستوى الثقافي أو الاجتماعي للمستقبل من أسباب فشل الرسالة؛ لأن كلام الإنسان مرهون بالجماعة التي يخاطبها، لذلك كان مرغما على أن يختار مما اصطلحت عليه تلك الجماعة، وإلَّا فإن رسالته ستتسم بالغموض، وعدم الدقة، لهذا يجب مراعاة جملة الظروف الحافة بالنص؛ لأن الخطاب يبسط ظلاله الدلالية على النسق اللغوي الذي يتشكل وفق الذات المتلقية، فالتركيب الخطابي-المشدود إلى حيثيات التخاطب أو سياق المقام-يبلور وحداته اللفظية المشكلة النسق التركيبي بناء على مقام المتلقي، أو المتلقين الذهني، والنفسي، والاجتماعي٤٣.

إن مبدأ مراعاة المخاطب، والحديث بلسانهم، وبما يعرفون هو مبدأ رباني يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾٤٤، فتوافق اللسان بين المتخاطبين من أهم عناصر نجاح الحدث، وتبليغ الرسالة؛ لأننا إذا تَحَدَّثْنَا بلغة لا يعرفها الطرف الآخر، فلن نصل إلى أي شيء، حيث "يوجد عامل مهم للغاية في اختيار اللغة، وهو إجادة كلٍّ من المتحدث والمستمع اللُّغة؛ فعادةً يحاول المرء استخدام اللغة التي ستسهم على أفضل نحو في نجاح التواصُل"٤٥.

على هذا المبدأ قالت العرب: خاطبوا الناس على قدر عقولهم، وقد روى البخاري تعليقا عن علي (t) أنه قال: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُوْنَ، . . ."٤٦، قال ابن حجر (ت ٨٥٢ ه): "بما يعرفون؛ أي: بما يفهمون"٤٧، وثبت في الصحيح "مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً"٤٨. ونقل الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) عن بعض أهل الهند: "ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم"٤٩.

الباب الثاني: الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية

٢ . ١ . التعريف بالازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية.

يرى بعض علماء اللسانيات

الاجتماعية أن ظهر مصطلح الازدواجية اللغوية لأول مرة كان سنة ١٨٨٥ حين وصف الكاتب اليوناني إيمانويل غواديس (Immanuel Goidis) الوضعية اللغوية اليونانية ٥٠، حيث يوجد بها مستويان لغويان مختلفان، هما: كثارفوسا (katharevousa)، ودموتيكي (domitiki).

أما في القرن العشرين فَيُعَدُّ العالم الألماني كارل كرمباخر (Karl Krumbacher) أول مَن تَحَدَّثَ عن ظاهرة الازدواجية اللغوية في عام ١٩٠٢٥١، وفي الدرس اللغوي الفرنسي يرجع فضل ظهور المصطلح إلى العالم وليم مارسيه (William Marcais) علم ١٩٣٠٥٢، إلا أن الدراسات المختصة بالازدواجية اللغوية ترجع فضل شيوع المصطلح في القرن العشرين إلى العالم الأمريكي تشارلز فيرجسون (Charles Ferguson) الذي وسَّعَ مصطلح (Diglossia) حين نشر سنة ١٩٥٩مقاله٥٣؛ بهدف وصف كل الوضعيات الاجتماعية التي يوجد فيها نمطان أو أسلوبان مختلفان من اللغة نفسها، يستخدمان في مجتمع واحد في مجالات ووظائف مختلفة؛ حيث يتمتع أحد الأسلوبين بوضعية اجتماعية أعلى من الآخر، وقد استند فيرجسون (Ferguson) لتمييز ظاهرة الازدواجية اللغوية إلى معيارين متباينين، هما:٥٤

الأول: يتمثل في التنافس بين شكلين لغويين ينتميان إلى اللغة نفسها.

الآخر: يتمثل في وجود وضع لغوي مختلف عن الشكلين المذكورين، حيث نجد أحد النوعين يختص باستعمالات اللغة اليومية، والآخر يفرض نفسه معيارا رسميّا في المدارس، والمحاكم، والصحافة.

فالازدواج اللغوي هو"تنافس بين لغة أدبية مكتوبة، ولغة عامية شائعة"٥٥، يقول اللغوي الفرنسي أندريه مارتينه (Andre Martine):"إن الازدواج اللغوي موقف لغوي اجتماعي، تتنافس فيه لهجتان، لكل منهما وضع اجتماعي وثقافي مختلف، فتكون الأولى شكلا لغويا مكتسبا ومستخدما في الحياة اليومية، وتكون الثانية لسانا يفرض استخدامه في بعض الظروف الممسكون بزمام السلطة"٥٦.

يشرح فيرجسون (Ferguson) ظاهرة الازدواج اللغوي Diglossia، يقول:"الديجلوسيا أو الازدواج اللهجي بأنه موقف لغوي ثابت نسبيا، توجد فيه بالإضافة إلى اللهجات الأساس للغة بعينها نوعية أخرى مختلفة صارمة من ناحية التقنين"٥٧، فالازدواجية اللغوية تتضمن لهجة متواضعا عليها، أو لهجات إقليمية متواضعا عليها، واللغة المقننة التي غالبا ما تكون أكثر تعقيدا من ناحية قواعدها النحوية، وهذه النوعية - غالبا - ما تكون مفروضة من جهة عليا، وهي أيضا لغة الكتابة الأساس في الأدب، ولغة التراث، وربما لغة لجماعة كلامية في الماضي، وهذه النوعية يدرسها الناس ويتعلمونها من خلال النظام التعليمي الرسمي للبلاد، وهي تستخدم في المواقف والأغراض الرسمية المنطوقة منها، والمكتوب، ولكنها ليست مستخدمة في أي قطاع من قطاعات المجتمع لتجاذب أطراف الحديث اليومي والعادي.

لهذا تنقسم ظاهرة الازدواجية اللغوية (Diglossia) -عند فيرغسون (Ferguson)- قسمين:

الأول: الشكل الراقي، يستخدم في الكنيسة، والآداب، والخطابات الرسمية، والجامعة.

الآخر: الشكل الأدنى، يستخدم في المحاورات العائلية، والآداب الشعبية.

إن هذه الازدواجية اللغوية أمر طبعي في الألسن البشرية؛ حيث يقوم في كل حضارة نمطان من الثقافة، ومن المستوى، وليس هذا الأمر مقصورا على لغة دون أخرى، فهي خاصية تشيع في اللغات البشرية عامة، وهذا ما يؤكده علماء اللسانيات الاجتماعية٥٨، يقول نادر سراج: "الازدواجية قائمة في أساس النظر، والتفكير، والتقييم، ثمة الثقافة الفصيحة، المدوَّنة، الرسمية، الخاصة بالعقل المُنْتِج، والقوى المُدَبِّرَة، وهناك من جهة أخرى الثقافة الشعبية، والمعيش والعملي؛ لذا يسهل القول هنا بقيام خطابين داخل كل ثقافة: خطاب الاختصاصي، والمثقف، والباحث المجتهد، والفكر النظري، والتجديد، وعالم المفاهيم والعقل المحض، ثم خطاب العامة، والمحسوس، وعالَم الشفهي والاستهلاك، والعلائق الحية المألوفة الشائعة"٥٩.

تباينت الآراء في بيان حد مصطلح الازدواجية اللغوية (Diglossia) ومفهومه، وجاء في أكثر دراسات اللغويين مختلطا بمصطلح "الثنائية اللغوية (bilingualism)، ويجد قارئ هذا الباب مصطلحا ثالثا هو الأحادية اللغوية (monolingual)، والتعريفات بهذه المصطلحات متداخلة٦٠، ولا سيما المصطلحين الأوليين٦١- وقد تلتبس

أحيانا – فلبيان هذه المصطلحات لا بد من تحديدها تحديدا دقيقا، وبيان معنى كل مصطلح، وهذا ما تسير عليه هذه الدراسة، وتفصيله الآتي:

أولا: الأحادية اللغوية (monolingual).

هو امتلاك الشخص لغة واحدة فقط (سواء فصحى كانت أم عامية)، أو أن يتحدث المجتمع لغة واحدة، وهو ما يعرف في اللسانيات الاجتماعية بالجماعة الكلامية (speech communities)، وهو أن يستخدم كل الناس لغة واحدة، أو لهجة بعينها، وهذا قول جون ليونز (John Lyons) ٦٢، ويرى بلومفيلد (Bloomfield): "إن الجماعة الكلامية هي مجموعة من الناس تتعامل، وتتصل عن طريق الكلام"٦٣، وقوله هذا غير محدد؛ لأنه يحتمل وجود بعض الأفراد في الجماعة اللغوية يتعاملون بلغة بعينها، بينما يتعامل الآخر بلغة أخرى، وهذا سيدخل في باب الازدواجية اللغوية، أو التعدد اللغوي، لذا اشترط تشارلز هوكيت (Charles Hockett) شرطين: حدوث الاتصال بين الجماعتين، ويكون باللغة ذاتها، يقول: "إن الجماعة الكلامية هي جماعة من الناس يتصل بعضهم ببعض سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك عن طريق لغة شائعة بينهم"٦٤، فالاتصال معيار مهم داخل الجماعة اللغوية كشرط لوجود الجماعة الكلامية، فلو تحدثت جماعتان كلاميتان باللغة نفسها دون أن يكون بينهما اتصال، فإن ذلك يجعلهما جماعتين كلاميتين منفصلتين.

لعل تَحَدُّثَ أفراد المجتمع كافة لغة واحدة أمر نادر الحدوث، وصعب التحقق٦٥؛ نظرا لوجود ما يقارب سبعة آلاف لغة، في حين لا يزيد عدد دول العالم عن مائة واثنتين وتسعين دولة٦٦، وعلى هذا فهناك على الأقل بعض الدول التي لا بد أن تتحدث بعدد كبير من اللغات، ولو أخذنا بالحسبان ضرورة الاتصال بالجماعات المجاورة، والمؤسسات الحكومية فمن المعقول أن نفترض أن الكثير من أفراد هذه الجماعات هم من متعددي اللغات.

يقول هدسون (Hudson) "إن المجتمعات ذات اللغة الواحدة المألوفة لمعظمنا قد تكون في الواقع غاية في الندرة والغرابة من منظور عالمي"٦٧، إن مصطلح الأحادية اللغوية (monolingual) يُطْلَقُ- أيضا-على الشخص الذي يمتلك لغتين أو أكثر، لكنه لا يستخدم في سياق حديثه إلا لغة واحدة، فلو افترضنا من كانت العربية لغته الأم، لكنه يتحدث في سياق واحد باللغة الإنجليزية دون أن يستخدم العربية، فهو في هذا المقام أحادي اللغة، كما نشاهد بطل التنس روجر فيدرير (Roger Federer)٦٨ الذي يتحدَّث بأربع لغات (الألمانية السويسرية، والألمانية، والإنجليزية، والفرنسية)، إلا أنه عندما تُجْرَى معه مقابلة فلا يتحدث إلا بلغة واحدة، ويفعل هذا عادةً دون أن يَدَع لغاته الأخرى تتداخل مع لغة الحوار، فهو يكون عادةً – في مثل هذه المواقف – في وضع أحادي اللغة. يقول فرانسوا (Franco): "عندما تتحدَّث زوجتي، مثلًا، إلى عمتها فإنها تختار الفرنسية كلغتها الأساسية، وتُوقِف عمل لغتها الإنجليزية؛ لأنها تعلم أن عمتها لن تفهمها إذا أدخلَتِ اللغة الإنجليزية في الحوار؛ ومن ثَمَّ فإن وضعها اللغوي يصبح أحادي اللغة، وعندما أتحدَّث أنا وزوجتي، فإننا نختار اللغة الفرنسية كلغتنا الأساسية، لكن تظل لغتنا الإنجليزية مُفعَّلة أيضًا"٦٩، فالشخص –هنا– في هذا الموقف ثنائي اللغة. لذا تُطلق المعاجم الإنجليزية على (أحادي اللغة؛ أي: صَاحِب اللُّغَة الوَاحِدَة) مصطلح (monolingual)، وهو (speaking or using only one language)، فالاستخدام والتحول يفرق بين الأحادية اللغوية، والثنائية اللغوية.

ثانيا: الثنائية اللغوية (Bilingualism).

هو امتلاك الشخص لغتين أو أكثر، ولا يسمى الشخص ثنائي اللغة إلا إذا استخدم اللغتين معا في حديث واحد؛ فيحَدَثُ تحول لغوي في كلامه، فثنائيو اللغة "أناس يستخدمون لغتين، أو لهجتين، أو أكثر في حياتهم اليومية"٧٠.

يرى فرانسوا (Franco) أن الإيطاليين الذين يستخدمون واحدة من لهجات إيطاليا المختلفة –مثل البوليزية– مع الإيطالية الرسمية، يمكن وصفهم بأنهم ثنائيو اللغة٧١، لكن هذا القول يحتاج إلى تقييد، لأن شرط ثنائي اللغة هو أن تُسْتَخْدَم اللغتان في السياق الواحد، كاستخدام المتكلم اللغة الإيطالية الرسمية واللهجة البوليزية في السياق نفسه، فحينها نقول عنه: هو ثنائي اللغة.

ثالثا: الازدواجية اللغوية (Diglossia).

هو وجود لغتين أو أكثر في المجتمع

الواحد٧٢، ولا يشترط أن يتحدث المجتمع كافة بهذه اللغات، أو أن تحدث فيه ظاهرة الثنائية اللغوية، قال أوكامبس (Ocampos)، إن "الازدواجية اللغوية هي وجود لغتين حيتين جنبا إلى جنب، حيث تستعمل كل لغة من قبل جماعة وطنية تمثل نسبة مهمة من المجتمع"٧٣. ويقول محمود حجازي "الازدواج اللغوي وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة، أما الثنائية اللغوية فتطلق عند وجود مستويين لغويين عند الفرد الواحد"٧٤، وبهذا يتضح الفرق بين الثنائية اللغوية (bilingualism) والازدواجية اللغوية (Diglossia)، فالثنائية اللغوية خاصة بالفرد واستخدامه الكلام في سياق واحد، أما الازدواجية اللغوية فخاصة بالمجتمع، لذا يصف جوشوا فيشمان (Joshua Fishman) باراجواي (Paraguay) بأنها مثال على الجماعة الديجلوسية مع انتماء اللغتين العالية والدارجة فيها إلى الأسبانية، والجوارانية (Guarani)٧٥، والجوارانية لغة هندية لا تنتمي إطلاقا إلى الإسبانية، فالمرء يميل إلى استخدام اللغة الجوارانية عند الحديث مع شخص في الريف، لكنه يستخدم الأسبانية في المدن٧٦.

يبقى الأمر المشترك بين هاتين الظاهرتين: الثنائية اللغوية (bilingualism) والازدواجية اللغوية (Diglossia) هو عند حدوث التحول اللغوي، لذا من يقف على التدريس في أكثر مدارسنا في الوطن العربي يلحظ أمرين، هما:

الأولى: ظاهرة التحول اللغوي في السياق الواحد، وهو أن يتحول المتكلم من لغة إلى أخرى أثناء مقام لغوي واحد، أو التحول من الفصحى إلى العامية٧٧، وهذه الحالة تندرج تحت مظلة (الثنائية اللغوية)، وتمثل "الفصحى والعامية في سياق اللغة العربية مستويين بينهما فرق أساس حاسم، يتمثل في أن الفصحى نظام لغوي معرب، أما العامية فقد سقط منها الإعراب بصورة شبه كلية"٧٨.

الأخرى: تدريس الطلبة بلغتين أو أكثر في المرحلة الواحدة، وهو ما يسمى في عرف وزارة التربية والتعليم بسلطنة عمان (المدارس ثنائية اللغة)، فهذه الظاهرة اللغوية تندرج تحت ظاهرة الازدواجية اللغوية.

الظاهرتان مهمتان جدا في علم اللغة الاجتماعي؛ لما لهما من أثر في المجتمع، وتكوين ثقافة الطالب وهويته، إلا أن الفرد يمكن أن يعالج ظاهرة الثنائية اللغوية؛ لأنه المتسبب فيها، والمتحكم في مسارها، أما الازدواجية اللغوية فتحتاج في علاجها إلى قرارات جماعية، أو سياسية.

يسعى البحث – في قادم الصفحات – إلى بيان أسباب التحول اللغوي، ومعرفة أشكاله، والوقوف على أثره في المتلقي. وسيركز البحث – إن شاء الله تعالى – على دراسة هذا الأثر في المتلقي، مع تقديم جملة من الحلول للتخلص من التحول اللغوي في مدارسنا، ومجتمعنا، أو التقليل من حدوث هذه الظاهرة.

٢ . ٢. أسباب التحول اللغوي.

التحول اللغوي أو التبديل اللغوي هو "الاستخدام المتبادل للغتين؛ بمعنى تحوُّل المتحدِّث بالكامل إلى لغة أخرى من أجل استخدام كلمة، أو عبارة، أو جملة، ثم عودته مرةً أخرى إلى اللغة الأساسية"٧٩ ويحدث التحول اللغوي في السياق الواحد لأسباب عدة٨٠، ولعل من أهمها:

١- الرغبة في التأثير في السامع.

٢- الرغبة في إظهار رفعة المكانة؛ باستخدام لغة أخرى قد يعطيها المجتمع منزلة أعلى من غيرها، ففي عام ١٣٠٠ كتب المؤرخ روبرت حول سيادة اللغة الفرنسية على الإنجليزية "إذا لم يكن الرجل يعرف شيئًا عن الفرنسية، فإن الناس ستقلِّل من شأنه"٨١.

٣- الرغبة في الحفاظ على سرية المعلومة، أو إقصاء شخص من دائرة الحديث، وإخراجه من سياقه، فيتعرَّض المرء إلى الإقصاء أحيانًا؛ لأنه لا يُجيد لغةَ الآخرين، أو لا يجيدها بالقدر الكافي، يقول فرانسوا (Franco): "الناس يتواصلون عادةً من أجل تحقيق شيءٍ ما، وليس لمجرد نقل معلومات إلى شخص آخَر؛ لذا يوجد كثير من الأمثلة على اختيار لغة معينة من أجل رفع مكانة المرء، أو لخلق مسافة اجتماعية، أو لإقصاء شخصٍ ما، أو لطلب شيءٍ ما، أو لإعطاء أحد الأوامر"٨٢.

٤- توضيح المعنى باللغة الثانية، أو تأكيد مفردة أو جملة، حيث يُفضَّل ثنائيو اللغة التعبير عن أفكار، أو مفاهيم معينة باللغة الأخرى، فهم يبحثون عن الكلمة المناسبة (le mot juste) كما يُقال بالفرنسية٨٣، ولكن البحث عن الأفضل مشروط بكون الشخص الذي تتحدث إليه يفهم لغتك الأخرى،

ويتقبَّل التبديل اللغوي.

٥- الاقتباس، قد يحدث التحول باقتباس المتكلم مثلا من لغة أخرى، أو بيت شعر، أو قولا مأثورا.

٦- تحديد المخاطب، قد يتحول المتكلم من لغة إلى أخرى إذا كان يقصد بهذا التحول توجيه الكلام إلى شخص ما في الجماعة اللغوية.

٧- إعطاء إشارة بإدراكه هذه اللغة، أو نقل انفعال معين كالتعجب، أو الفرح، أو الغضب، أو الضيق، وفي هذا تشير بافلينكو (Pavlenko) إلى أنه في بعض الأحيان عندما يشعر ثنائيو اللغة بغضب حقيقي، يفقدون الاهتمام بحدوث تواصُل حقيقي، وقد يستخدمون لغةً لا يستطيع شريك حياتهم، أو أبناؤهم فهمها؛ فيمكن لهذا أن يعطيهم إشباعًا عاطفيًا حتى إن لم تكن الكلمات مفهومة٨٤.

٢ . ٣. أنواع التحول اللغوي.

يقسم علم اللسانيات الاجتماعية التحول اللغوي بالنظر إلى الباث والمستقبل قسمين، هما:٨٥

الأول: التحول الإنتاجي، هو التحول الذي يقوم به منتج النص (المتكلم أو الكاتب)، وقد يكون كلاميا، أو كتابيا، والتحول الكلامي أسهل، وأكثر شيوعا.

الآخر: التحول الاستقبالي، هو التحول الذي يقوم به مستقبل النص (المستمع أو القارئ)، فكلما تحول المتكلم من اللغة الأولى إلى اللغة الثانية يتحول معه المستمع.

إن التحول الاستقبالي أصعب من الإنتاجي؛ لأن المنتج مَن يختار اللغة، والتوقيت، وتوزيع اللغتين على المقامات، والموضوعات المختلفة، والمستقبل يفاجأ بالتحول، وتوقيته، وموضوعه. فضلا عن كون المنتج غالبا واثقا من قدرته على التعبير باللغة التي يتحول إليها، أما المستقبل فما عليه إلا أن يستقبل، وقد يكون قادرا على الاستيعاب، أو غير قادر.

يقسم بعض العلماء التحول اللغوي بالنظر إلى المستوى اللغوي، قسمين، هما:

الأول: التحول اللغوي الداخلي، ويكون بين اللغة الواحدة، كالتحول من الفصحى إلى العامية، أو العكس.

الآخر: التحول اللغوي الخارجي، ويكون بين لغتين في المجتمع الواحد، كالتحول من العربية إلى الإنجليزية، وقد يكون من لهجة إلى أخرى، كأن يتحول من اللهجة الخليجية إلى اللهجة المصرية.

٢ . ٤. عيوب التحول اللغوي.

هناك جملة من المميزات يحصل عليها ثنائيو اللغة في المجتمع، كتمكنهم من الاطلاع على ثقافة الآخر، والسفر، وغير ذلك من المميزات التي قد يراها بعضهم أكثر عددًا من عيوب التحول اللغوي، ولكن مع هذه المميزات تظهر بعض المشاكل عند حدوث التحول اللغوي، ومن أهم هذه العيوب.

١- قد ينظر إلي ثنائي اللغة نظرة سخط من قبل أحادي اللغة، ولا سيما عندما يهمش أحادي اللغة من أفراد بين المجموعة، حيث تختلف مشاعر أحادي اللغة تجاه أصحاب الثنائية اللغوية، حيث تتراوح بين الإيجابية للغاية، والسلبية للغاية، كما يقول الخبيرُ العالمي في الثنائية اللغوية، أينار هوجن (Einar Haugen) في عام ١٩٧٢٨٦.

٢- قد تمارسه اللغة الأولى (الأقوى عادةً) خصائصها اللغوية على اللغة الثانية (الأضعف عادةً)؛ لذا تظهر لكنة اللغة الأولى، مما قد يجعل المرء ينفصل عن الآخَرين بينما يريد أن يندمج معهم.

٣- قد يؤدي تركيز المرء على لغة ثانية إلى نسيان شيء من اللغة الأولى، أو خمولها.

٤- قد يُصاب الأشخاص ثنائيو اللغة الذي لا يجيدون لغتهم الأخرى إجادة تامة بالتعب والإحباط من اضطرارهم لاستخدامها في التحدُّث أو الكتابة، وإنهم يرتكبون أخطاء طوال الوقت عند فعل هذا، وهذا ما يذكره ريتشارد رودريجيز (Richard Rodriguez) في كتابه نهم الذاكرة (Hunger of Memory) ٨٧.

٥- يُطلَب من ثنائيي اللغة عادةً التصرُّف كمترجمين شفويين أو تحريريين، ويجد كثير منهم صعوبة وتعبا.

٦- يقول فرانسوا (Franco): إن ثنائيي اللغة لا يشعرون بالانتماء إلى أيٍّ من المجموعتين الثقافيتين؛ فيشعرون بأنهم غرباء عن ثقافتَيْهم، خاصةً عند عودتهم إلى وطنهم الذي لم يَعُدْ وطنهم٨٨.

بناء على هذا نطرح هذا السؤال المهم: هل تؤثر اللغة الثانية في مستوى الهوية والفكر الثقافي؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستمثل

المبحث الأول من الباب الثالث من هذا العمل.

الباب الثالث: أثر الثنائية اللغوية في الهوية والفكر

٣ . ١. اللغة والفكر.

اللغة – بلا منازع – أوضح خصائص الجنس البشري، فهي تميزه عن غيره من المخلوقات، وتدلل على طبيعته الفريدة، وتؤكد حقيقة وجوده في الذروة العليا لمرتقى الكائنات الحية، وتعكس جوانب حياته، وقواعده الاجتماعية، وسلوكه، ومعتقداته، وقِيَمه، وعاداته، وتقاليده، فاللغة عند اللغويين٨٩ نظام من الرموز المختلفة التي تُشير إلى أفكار مختلفة، وهي مجموعة المصطلحات التي تتخذها هيئة المجتمع بأكمله؛ لإتاحة الفرصة أمام الأفراد لممارسة ملكاتهم، أو هي مجموعة من الصور اللفظية تُختزن في أذهان أفراد الجماعة اللغوية؛ للتفاهم بين أبناء مجتمع معين، وهي ترتبط بالنماذج الثقافية؛ لأنها غير مفصولة عن الفكر الإنساني؛ فهي منهج للتفكير، ونظام للاتصال والتعبير، فثقافة كل مجتمع كامنة في لغته، وفي معجمها، ونحوها، وصرفها، ونصوصها، وفنها، وأدبها.

يقول نبيل علي: "اللغة ليست مجرد نظام لتوليد الأصوات الناقلة للمعنى، فهي كما قالوا عنها مرآة العقل، وأداة الفكر، ووعاء المعرفة، والهيكل الحديدي الذي يقيم صلب المجتمعات الإنسانية"٩٠، يقول الفيلسوف الألماني ليبنتز (Leibnitz):"اللغة عبارة عن مرآة للعقل"٩١، وهذا يعنى أن اللغة عظيمة الرقي، تعكس الإنجازات الفكرية لمتكلميها، وتعززها، وأن تعليم اللغة يعني تعليم التفكير، فاللغة تشبه القاموس الذي يمثل في الأصل الذاكرة الجماعية، واكتشافها يعني اكتشاف عالم جديد٩٢، لذا يقول محمد الخضر: "اللغة ما يخطر في الفكر من المعاني، وهى التي تجعل المعاني محفوظة باقية، ولا تقتصر اللغة على نقل ما يجرى في أقوال الأجيال الماضية من المعاني الحيوية، أو الآراء العلمية أو الأدبية، بل تنقل إلينا طرق تفكيرهم، ومن الواضح أن الأقوام يختلفون في طرق التفكير، وطرز تفكير كل قوم مبثوث في ألفاظهم، ومدلول عليه بأساليب مخاطباتهم"٩٣.

إن العلاقة بين اللغة والفكر من المواضيع التي طال فيها النقاش بين المدارس اللغوية، فظهرت فيها ثلاثة اتجاهات:٩٤

الاتجاه الأول يمثله السلوكيون الذي يرون أنه لا يوجد فرق بين اللغة والتفكير، فهما شيء واحد، وهذا ما انتهى إليه واطسون (Watson) مؤسس السلوكية القديمة٩٥، الذي يرى أن التفكير هو اللغة؛ بناء على ذلك فان التفكير عبارة عن تناول الكلمات في الذهن، أو أن التفكير عبارة عن عادات حركية في الحنجرة، أو هو حديث داخلي يظهر في الحركات قبل الصوتية لأعضاء الكلام؛ أي: أن التفكير كلام ضمني.

الاتجاه الثاني يمثله علماء النفس، وهم يرون الفصل بين اللغة والتفكير، ومن هؤلاء عالم النفس الروسي فيجوتسكي (Vygotsky)، وعالم النفس السويسري بياجيه (Piaget Jean) صاحب النظرية الذهنية المعرفية في التعليم.

يقول فيجوتسكي (Vygotsky):"إن تدفق التفكير لا يصاحبه ظهور متزامن للكلام، فالعمليتان ليستا متماثلتين، ولا يوجد تطابق جامد بين وحدات التفكير، ووحدات الكلام"٩٦، ويرى فيجوتسكي أنه لا يمكن فهم العلاقة بين التفكير والكلام من دون فهم واضح لطبيعة الكلام النفسية، فهو يميز بين مستويين للكلام:

الأول: المستوى الدلالي الداخلي المتصل بالمعنى.

الآخر: المستوى الصوتي الخارجي.

يرى أن هذا التمييز لا ينفي الوحدة بينهما، ويؤكد أنها ليست وحدة تجانس، وإنما هي وحدة تركيب. ويتحرك هذان المستويان في اتجاهين: فمن ناحية الكلام الخارجي يتقدم الطفل من الجزء إلى الكل، فهو يبدأ بكلمة واحدة، ويتجه نحو الجمل، وهذا الكلام يكون للآخرين. أما من المستوى الداخلي من جهة المعنى، فهو يكون للذات، ويسير في الاتجاه المعاكس. فكلمة الطفل الأولى تمثل جملة كلية، ثم يأخذ في التمكن من الوحدات الدلالية المنفصلة.

أما الاتجاه الثالث فيرى أصحابه أن اللغة والتفكير مترابطان ارتباطا وثيقا؛ فاللغة – عندهم – هي الوعاء أو المظهر الخارجي الذي يُقَدَّمُ من خلاله الفكر، وهم يؤمنون أن ما يدور بخلد الإنسان يمكن التعبير عنه بأكثر من وسيلة، كالرسم بالألوان، أو الموسيقى، إلا أن اللغة هي أكثر الأدوات شيوعا في التعبير عن الأفكار، بل هي أكثرها دقة، وشمولا، ومباشرة، فهي أداة فهم المعاني، ونقل الأفكار بين الناس، والقصد منها هو البيان عما في الأذهان، والإفصاح عن

المقاصد والأغراض٩٧، فربما لا يمكن أن يحدث التبليغ أو الاتصال من خلال الكلام بين متكلمين من لغتين مختلفتين؛ لأنه ليس هناك ارتباط حتمي بين الأصوات المتكلمة وما تدل عليه هذه الأصوات حتى لو كان الشيء المعبر عنه متماثلا في كلتا اللغتين٩٨.

إن الناظر في تراثنا العربي يلمح أن عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) قد أسَّسَ لما طرحه فيجوتسكي (Vygotsky)، حيث يقرر عبد القاهر (ت ٤٧١ هـ) "أن نظم الألفاظ لصياغة جملة لا يأتي عشوائيا، فهو يأتي نتيجة لترتيب معانيها في العقل، وتناسقها فيه"٩٩، فلا تُنْظَمُ الألفاظ في جملة من حيث هي ألفاظ وبمعزل عن دلالاتها، وإنما تُنْظَمُ بمراعاة تلك الدلالات؛ أي: أن النظم يكون بين المعاني لا بين المباني.

إن الأفكار المطروحة في حوار معين تبنى على سياقات مختلفة، فيجب ألَّا يلغي المخاطب طبيعة المتحدث التكوينية، فاللغوي شأنه شأن أي كاتب، لا ينسلخ من آثار خلفيته الثقافية، ومعتقداته الدينية، واتجاهاته الفكرية، فثمة اختلاف بين المتكلمين في اختيار المعاني، وترتيب الأفكار، والقوالب اللفظية؛ باختلاف اعتقادهم تجاه القيم الثقافية، والأعراف الاجتماعية١٠٠، فلا بدَّ أن يكون الباحث على بينة من أصول المذهب الفكري لكل لغوي أو بياني يريد أن يدرس آثاره، وأفكاره، ويعرف البواعث التي دفعته إلى أن يختار هذا القول،أو ذاك في كل ما تناوله من قضايا اللغة والبيان"١٠١.

إن أثر الثنائية اللغوية والازدواج اللغوي كبير في واقع الهوية، ومناخ الثقافة، وطَمْس هوية المجتمع، وقد أعلنت رويترز (Reuters) في مقال نُشِر في ٢٤ يونيو عام ٢٠٠٨"أن الأشخاص ثنائيي الثقافة الذين يتحدثون لغتين قد تتغيَّر شخصيتهم دون وعي؛ عند تغيير اللغة التي يستخدمونها"١٠٢.

نعم قد لا نشعر بها، لكن هذا الخطر سيطفو مع الجيل الذي سيأتي منسلخا من قيمه، ومُنْكِرا عادات أمته، ورافضا هوية قومه، معتزا بغيرها، لاهثا وراء اللغات الأجنبية دون أن يقف على أساس قوي من لغته، وهذا ما قاله باري ماكلوكلين (Barry McLaughlin) عام ١٩٧٨"تُعدُّ في الولايات المتحدة الأحادية اللغوية هي القاعدة، وقد كانت الثنائية اللغوية تُعدُّ وصمةَ عار، وعائقًا اجتماعيًا. ولا علاقةَ لهذا العداء تجاه الثنائية اللغوية باللغة في حدِّ ذاتها؛ فهذا العداء ليس موجَّهًا للُّغة بل للثقافة، فيعبِّر الشخص الثنائي اللغة عن أسلوب غريب في التفكير وقِيَم غريبة"١٠٣. وقد وُجِّهَ سؤال -حول أثر هذه الظاهرة- إلى الدكتور رشيد بلحبيب عن توجُّه المبدعين في المغرب العربي إلى كتابة إنتاجاتهم الفكرية بلغات أجنبية، وأثر ذلك في الثقافة العربية١٠٤.

جاء الجواب في مسألتين:

الأولى: الخطورة لا تكمن في الكتابة باللغة الفرنسية، . . .، بل تكمن في الانسلاخ والذوبان في الآخر، وخدمة لغته والدعاية لها بالمجان، وعلى حساب اللغة الوطنية والدينية للأمة. للأسف يوجد لدينا كتاب رديئون بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى لم ينسلخوا من لغتهم فقط، بل انسلخوا من جلودهم، وتحولوا دعاة للفتن، ونصبوا للأمة الكمائن، وكلفوها ما لا تطيق.

الأخرى: يحرص المغاربة على تعليم العربية وعلومها باللغة العربية، ويمنعون التدريس بالعامية في المراحل الدراسية منعا مطلقا، وهم يميزون بين العامية والفصحى، ولا يعدون عاميتهم عربية ولا قريبة من العربية، في حين كثير من الشعوب يعدون عاميتهم هي الفصحى، ويتساهلون في التعليم بها، وهذا مما ينقض البناء، ويُدب فيه الضعف والوهن.

٣ . ٢. آلية العلاج.

يمكن أن نضع هنا جملة من الحلول لرفع هذه الظاهرة، أو التقليل منها، وأهم هذه المقترحات الآتي:

١- تحفيظ الطفل القرآن، وزيادة ساعاته في المدارس والجامعات؛ لما له من دور فاعل في تصحيح المسار اللغوي، وتنمية المهارات اللغوية، وزيادة المدارك اللغوية، فضلا عن إلحاق الطفل ما قبل المدرسة برياض تعليم العربية والقرآن.

٢- تضافر الجهود الفردية والمؤسسية في نشر اللغة العربية، وزيادة الوعي بالثقافة اللغوية؛ لما له من دور ملموس في تنمية مستوى الطفل اللغوي، وتحسين تحصيله الأكاديمي، فالعربية تحتاج إلى قرارات سياسية وتربوية شجاعة تُترجم نتائجها إلى برامج، وأنشطة، وخطط ترتقي بتعليم اللغة العربية، وتهتم بسلامتها، وتوفير مناخ لغوي مبني على حب اللغة، والرغبة في دراستها، والبحث

عن جماليتها. يقول غوري: "انتشار اللغة العربية في باكستان لا يعود إلى رغبة المتدينين من الشعب فحسب، بل تتعدى إلى بعض الحكام من أصحاب الميول الدينية مثل الجنرال ضياء الحق الذي أمر عام ١٩٧٨ م بتعليم اللغة العربية كمادة أساسية في المراحل الدراسية بدءًا من الصف الأول حتى الصف العاشر"١٠٥، ومما يحسب من إنجازات الجنرال ضياء الحق لخدمة اللغة العربية إنشاء الجامعة الإسلامية العالمية في العاصمة عام ١٩٨٠م التي تعتمد اللغة العربية في عدد من التخصصات، وخاصة في الكليات الرئيسة مثل: كلية اللغة العربية، وكلية الشريعة، والقانون، وكلية أصول الدين، علاوة على تدريسها مادة إجبارية في كليات الجامعة الأخرى، وأقسامها المختلفة حتى العلمية منها كمتطلب عام. لهذا تعمل كثير من الدول على الحفاظ على لغتها، وتسن القوانين لمنع استعمال غير لغتها، ومن الأمثلة هذا على ما قام به وزير المواصلات في ألمانيا بيتر رامسوير١٠٦، الذي منع في عام ٢٠١٠م – تحت طائلة المسؤولية – موظفي وزارته من استخدام سلسلة من المصطلحات اللغوية الإنجليزية (Laptops، Flip-charts، Tickets) من هذا ما قامت به فرنسا التي تمارس التطهير العرقي؛ حيث حذر وزير الثقافة الفرنسي جاك توبون١٠٧، والدولة الفرنسية، وسائل الإعلام من استعمال غير الفرنسية، ووضع غرامات لمن لا يتقيد بهذا الأمر، وفي هذا الصدد غرَّمت الحكومة الفرنسية- عام ٢٠٠٦-شركة فرنسية (هي فرع لشركة أميركية(١٠٨، مبلغا ماليا قدره خمسمائة ألف يورو، فضلا عن غرامة يومية دائمة قدرها عشرون ألف يورو؛ لتزويد موظفيها ببرامج، ووثائق تقنية باللغة الإنجليزية فقط، لذا توجد بعض المؤسسات الفرنسية تحاول تقليل قدر الاقتباس اللغوي من اللغة الإنجليزية؛ فقامت الأكاديمية الفرنسية بتقديم كلمات فرنسية لتحلَّ محلَّ الكلمات الإنجليزية التي تعبِّر عن مفاهيم جديدة١٠٩.

٣- ضرورة تعليم أساس اللغة الأم دون أن يزاحم هذا الأساس بلغات أخرى، كما يقال: التأسيس خير من التصحيح، وقد أشار قديما الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) عند حديثه عن المترجم إذا أراد أن يترجم كتابا لحكيم من الحكماء، يقول:"متى وجدناه أيضا قد تكلّم بلسانين، علمنا أنَّه قد أدخلَ الضيمَ عليهما؛ لأنَّ كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذُ منها، وتعترضُ عليها، وكيف يكونُ تمكُّنُ اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكُّنه إذا انفرد بالواحدة، وإنَّما له قوَّةٌ واحدة، فَإنْ تكلّمَ بلغة واحدة استُفْرِغَتْ تلك القوَّةُ عليهما"١١٠. أما في الدراسات الحديثة فيذكر علماء التربية أن هناك ظاهرة تسمى ظاهرة الاعتماد المتبادل، أو الاتِّكال المُتَبَادَل (Interdependence)) بين اللغة الأم واللغة الأجنبية، مما يؤثر في إتقانهما معاً؛ فالطفل الذي يتلقى دروسا في لغة ثانية (أجنبية)، قبل أن يتقن لغته الأولى لن يتقدم في هذه أو تلك١١١، ولعل هذا ما نادت به النظريات اللغوية القائمة على الطريقة الذهنية المعرفية التي نادى به كل من تشومسكي (Chomsky) وجان بياجيه (J.Piaget)، وهي تقوم على تعريف المتعلم بالنظام الصوتي، والنحوي، والصرفي، ودلالات اللغة. فالأساس الأول لتمكين المتعلم من ممارسة اللغة، هو أن يسيطر بوعي على نظامها متفهما له، مستوعبا لحقائقه، تقول نادية طوبا:"إنه كلما ازداد أساس اللغة الأم رسوخا، واستمرت في تطورها، ازدادت القدرة على اللغة الثانية"١١٢. كتب عام ١٨٩٠ التربوي سايمون لوري (Simon Laurie) تقريرا حول تعليم لغتين في الوقت نفسه، يقول:"إذا استطاع طفل الحياةَ أو ولد بلغتين في وقت واحد على نحوٍ متساوٍ، فإن هذا لسوء حظه؛ فإن نموه الفكري والروحي لن يتضاعف نتيجةً لذلك، وإنما سيُستنزَف نصفه، وسيصعب تحقيق وحدة الفكر والشخصية في مثل هذه الظروف"١١٣، وقال- عام ١٩٢٠- أوتو يسبرسن (Otto Jespersen):"إن الجهد العقلي المطلوب لإتقان لغتين بدلا من لغة واحدة يقلِّل بالتأكيد من قدرة الطفل على تعلُّم أشياء أخرى كان من الممكن له ويُفترَض به تعلُّمها"١١٤. أشار التربويون إلى أن تعلم كلمتين لشيء واحد، أو لفكرة واحدة ونظامين من القواعد ينعكس سلبًا على الطفل

فيتداخل تفكيره، ويعتاص كلامه؛ الأمر الذي دفع بعضهم إلى القول بوجود علاقة بين ثنائية اللغة والتأتأة من أمراض الكلام، فقد أجريت دراسة على أطفال بأعمار (٤-١٧ سنة) كان من نتائجها"أن ٢,٨٪ من الأطفال ثنائيي اللغة كانوا مصابين بالتأتأة، بينما لم يزد المصابون بالتأتأة عن ١,٨٪ فقط من أطفال وحيدي اللغة"١١٥. إن هذا التداخل بين اللغات عند ثنائيي اللغة ليس محصورا على الأطفال بل قد يحدث عند البالغين، فتلحظ اللكنة في كلامهم؛ بتأثير اللغة الأقوى في نطق الأخرى، فوجود لكنة في لغة واحدة أو أكثر هو القاعدة لدى الأشخاص ثنائيي اللغة؛ والاستثناء عدم وجود اللكنة، وهذا ما يؤكده الباحث البريطاني فيفيان كوك (Vivian Cook) بأبحاثه التي تُظهِر كيف يمكن أن تؤثِّر معرفةُ لغة ثانية واستخدامُها في اللغة الأولى١١٦، وهذا ما أشارت إليه إيفا هوفمان (Eva Hoffman) في كتابها: فُقِد في الترجمة (Lost in Translation) تقول:"عندما أتحدَّث بالبولندية الآن، فإنها تكون غير نقية، وتؤثِّر فيها الإنجليزيةُ الموجودة في ذهني، فكل لغة تغيِّر الأخرى، وتختلط بها"١١٧.

٤- الاهتمام بمناهج التدريس، وتطوير نظام التعليم، وتجويده، وإعداد المعلمين وتعزيز قدراتهم، وتزويدهم بأحدث النظريات المتصلة بواقع العمل، واتصالهم بالجامعات المتقدمة في هذا المجال، والاهتمام بتصميم المداخل التعليمية، حيث تؤكد الأدبيات١١٨ في مجال تعليم اللغة أهمية تصميم المداخل التعليمية المتسقة مع طبيعة اللغة، وطبيعة تعلّمها وتعليمها، وما يناسبها من طرق التدريس التي تتيح للمتعلّم ممارسة اللغة، واستخدامها، الذي يؤدي بالمتعلّم إلى تعلّم اللغة.

٥- تزويد الطالب بالمعجم اللغوي (الكفاية اللغوية)، وهذه الكفاية لا تقاس بقوة ذاكرة المتعلم في ترديد ما يسمع فحسب، بل في قدرته على تطبيق قاعدة تعلمها على عدد لا يحصى من الأمثلة في اللغة سماعا وإنتاجا. فتجد الطالب يحفظ القالب دون أن يتمكن من توظيفه في جمل من إنشائه، أو مواقف مختلفة، فيحفظ كلمة (أحسنتَ) لكنه لا يملك القدرة على توظيفها في تعبير قول: (أَحْسَنَتْ، أو أَحْسَنَ، أَحْسَنَّا). لعل من الوسائل المقترحة في هذا المجال هو الاهتمام بإثارة نشاط الطفل العقلي، وتحفيزه بممارسة الألعاب اللغوية، وتحبيبه في اللغة العربية. يمثل العامل الديني أهم الأسباب المعضدة قوة العربية، وقبولها بين أبناء الدول إسلامية خاصة وغير الإسلامية عامة، ومن يطالع مصنفات النحو العربي التعليمي من منتصف القرن الثاني الهجري حتى منتصف القرن التاسع الهجري يجد أن تعليم النحو كان وسيلة من وسائل التقرب إلى الله، بخدمة لغة كتابه، وكان أيضا سببا من أسباب الارتزاق في مجتمع يحتاج دائمًا إلى هذا النحو العربي؛ لفهم كتاب الله، وسنة رسوله الكريم ( )١١٩، من أجل هذا يمثل نشر اللغة العربية، وتعليمها، أو فرضها على الراغبين في العمل بالبلدان العربية رافدا من روافد الاقتصاد١٢٠، فاللغة العربية "هي ثروة قومية حقيقية مثلها في ذلك مثل البترول، والصناعة، والزراعة، وقناة السويس، وغيرها من الثروات الطبيعية، ويمكن استثمارها حضاريًّا وسياسيًّا والانتفاع بها على أنها مورد اقتصادي كبير، ويمكن استثمارها تمامًا مثلما نستثمر الإنتاج الصناعي والزراعي وكل ما نملكه من الموارد الاقتصادية الأخرى التي تعتمد عليها الثروة القومية"١٢١.

٦- دعم الحديث باللغة العربية في المجتمع، والدعوة إلى الحديث بها في القطاعات المختلفة، ولا سيما في مجال التعليم، والمؤسسات الحكومية؛ لأن الازدواج اللغوية بين العامية والفصحى تصعب عملية اكتساب المتعلم اللغة،؛ لأن المتعلم الأجنبي عندما يأتي بلدًا عربيا بهدف اكتساب اللغة العربية يجد نفسه أمام لغتين- في تصوره- وهما:١٢٢

الأولى: لغة فصيحة، يتعلمها في المركز التعليمي، ويسمعها من معلمه.

الأخرى: لهجة محكية، يسمعها في محيطه الاجتماعي، وقد يسمعها-للأسف- من بعض معلمي اللغة العربية.

لذا يجب -لتخطي مثل هذه العقبة- أن نعمل على نشر الفصحى، وتقويتها على ألسنة أبنائها أولا، وتصحيح مناهجها، وتمكين وسائل الإعلام من الارتفاع

بالعامية إلى الحديث بالفصحى؛ ولا سيما الإعلانات التجارية التي يجب أن تلزم باستخدام العبارات سليمة التراكيب التي تجمع بين البساطة في التعبير، واحترام قواعد اللغة؛ لأن الأنشطة

الإعلامية أقرب إلى الأطفال، فضلا عن كونها مادة سماعية تفيد دارسي اللغة العربية، وتقوي ملكتهم اللغوية.

تعكس ظاهرة تفشي العامية التردي الثقافي والعلمي الذي يلف أمتنا العربية من المحيط إلى الخليج، وهذا ما أكده نبيل علي، فهو يرى أن أزمة اللغة العربية دليل على انتكاسة الأمة، وتبعيتها، يقول:"إن اللغة العربية تعيش أزمة لغوية طاحنة سببها هو العولمة الاقتصادية، وانبهار الجماهير العربية بثقافة الغرب ولغاتها، وتدهور اهتمام الجماهير باللغة العربية، وعدم اعتزازهم بها، وإلحاق أبنائهم بالمدارس الخاصة والجامعات الخاصة التي تعلم باللغات الأجنبية، والافتخار بذلك واعتباره نوعا من الوجاهة الاجتماعية، ودليلا على التقدم الحضاري، وهنا تقوم اللغة العربية دليلا شاهدا على الانتكاسة الثقافية للأمة في الوقت الحاضر"١٢٣.

نبَّه علماء العربية قديما من هذه الانتكاسة اللغوية، فقد ضج ابن منظور (ت ٧١١ هـ) من شيوع اللحن في زمنه، مما دفعه إلى وضع معجمه، يقول: "لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحنا مردودا، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير العربية؛ فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفتخرون"١٢٤، يقول العدناني: "إنني لا أرى المجد اللغوي أقل من المجد السياسي للأمة الصاحية حديثا من سباتها العميق كأمتنا العربية؛ لذا أنصح أن يوجهوا اهتماما كبيرا إلى تقوية الفصحى، والإقلال من اللغة العامية، وضبط معظم الكتب والمجلات بالشكل التام"١٢٥، فاللغة "ملكة لا تحصل إلا بتكرار الأفعال"١٢٦، فالمتعلم يكتسب المعرفة باللغة من بيئته اللغوية التي تمثل أفضل مكان لتكرار هذه الأفعال، ومن تعرض شفاف لها، ومن دون أن يتدرج عبر تمارين متخصصة فيستطيع، بعد ذلك، استعمال بُنى معقدة، وقواعد موجهة للتعبير عن أفكاره وأحاسيسه، لأن "الطفل عندما يولد يكون مزودا بملكة لغوية فطرية، أي: مجموعة من القواعد والقوانين اللغوية العامة التي تتضح شيئا فشيئا من خلال ما يسمعه الطفل في مجتمعه إلى أن يصبح قادرا على بناء الجمل وتركيبها"١٢٧.

إن اللغة مَلَكة يصار إليها بكثرة الممارسة والمزاولة، وقديما نصح العلماء من أراد العربية بأخذها من أهلها، وحفظها من أفواههم بالرحلة إليهم، والإقامة معهم في بواديهم، أو استقدامهم وملازمتهم، حيث تمثل البيئة الاجتماعية الفصيحة التي ينشأ فيها الطفل، ويستمع الكلام الفصيح من أهم مصادر لاكتساب الملكة اللسانية كما يقول محمد الطيان١٢٨، ومنها كذلك الاستماع إلى وسائل الإعلام الفصيحة، وقراءة النصوص البليغة، وحفظها والاستماع إليها، وهذا مشاهد في أطوار نمو المتعلم، وملموس في واقع الحياة، فالمتكلم يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطباتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيوظفها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها كذلك، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم١٢٩.

الخاتمة

إن تقديم اللغة العربية في الساحة التربوية، والمجتمع المعرفي لتوازي -في أهميتها- اللغة الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الصينية أو غيرها من اللغات السائدة في الساحة العالمية يحتاج إلى وعي أبنائها أولًا بأهميتها، ثم بتضافر جهود محبيها لبيان مكانتها. فالعربي قديما-ليتعامل مع المعرفة-زاوج بين ما نقله من تجارب الأمم الأخرى، ومضامين الرسالة التي يحملها بصفتها مسؤولية لإبلاغها، ومن ثم الإبداع فيها باللغة الأم، حتى غدت تلك اللغة لغة الحضارة، والمعرفة، والتبليغ.

إن الدعوة إلى استخدام اللغة العربية في المدارس، والمنازل، والأسواق، والتعليم الجامعي، لا تعني أبدًا إهمال تَعَلُّم اللغة الأجنبية، أو التقليل من شأنها، فمعرفة لغة أخرى تساعد على قراءة كتب متنوعة أكثر، وعلى السفر، وعلى التحدُّث مع الناس مباشَرةً، ومعرفة فكرهم، وهذا مطلب حث عليه رسولنا الكريم.

إن تعلم اللغة الأجنبية مقترن دومًا بالدعوة إلى وجوب إتقان اللغة الأم؛ لأنها خير ما يُعِين في تعلم اللغات الأخرى، والترجمة منها وإليها، واتخاذها أساسًا لاستمرار الاتصال بالتطور العلمي والتقني العالمي، والتمكن من إكمال الدراسات العليا والتخصصية، ونشر البحوث العلمية في المجلات والدوريات العلمية العالمية؛

لذا يجب أن توجد لغات وليست لغة؛ لأنها ستساعد على إغناء العربية، واكتشاف أسرارها، ومباهجها ومفاتنها، وعلى رأي الشاعر الألماني جوهان جوته (Goethe Johann)"مَن لا يعرف من اللغات إلا لغتَه، فذاك يَجهل حتى لغته"١٣٠، ولا يختلف هذا الرأي كثيرًا عن أحد الأهداف التي اقترحَتْها منظمةُ الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (UNESCO)، في إعلانها العالمي للتنوع الثقافي الصادر عام ٢٠٠٢، الذي نصُّه: "تشجيع التنوع اللغوي، مع احترام اللغة الأم، في كل مستويات التعليم، متى أمكن ذلك، وتدعيم تعلم لغات عدة منذ سن مبكرة"١٣١.

لكن ثمة فرق كبير بين تعلم لغة أجنبية للإفادة منها، ومواكبة الجديد في عالمها، وتطوير حضارتنا وثقافتنا، وبين أن نتعلمها لكي تحل محل لغتنا، وتحيلنا إلى مسخ عقولنا، ونسيان هويتنا، وتراثنا، مع اعتقاد بعضنا أن كون المرء ثنائيَّ اللغة يعني - تلقائيًا - أنه أيضًا ثنائيُّ الثقافة، ففي الواقع ليست الثنائية الثقافية ملازِمةً الثنائية اللغوية؛ فقد يستخدم كثير من الناس لغتين أو أكثر في حياتهم اليومية بينما ينتمون إلى ثقافة واحدة، ويعيشون في جلبابها.

الهوامش

١- نايف خورما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، مجلة عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر، ١٩٧٨، ص ١٢١.

٢- نادر سراج: إشكالية الازدواجية اللغوية في اللسان العربي (رؤية ألسنية حديثة)، مجلة الاجتهاد، بيروت، دار الاجتهاد، السنة ٥، العدد ٢٠، ١٩٩٣، ص ٢١٦.

٣- جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٤٥، يناير ١٩٩٠، ص ١٤٣.

٤- أنيس فريحة: اللهجات وأسلوب دراستها، بيروت، دار الجيل، ط ١، ١٩٨٩، ص ٧٣.

٥- محمد حماسة: مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، القاهرة، دار غريب، ط ٢، ٢٠٠٦، ص ٤٨.

٦- ميشال زكريا: الألسنية (علم اللغة الحديث)، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٥، ص ٩.

٧- دي سوسير: دروس في الألسنية العامة، ترجمة صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، ليبيا، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥، ص ٣٥.

٨- محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، بيروت، دار النهضة العربية، د. ط، د.ت، ص ٧٣.

٩- استعان علم اللغة الحديث بعلم النفس، وعلم الاجتماع العام، وعلم الأجناس البشرية، وعلم الوراثة، وعلم الحياة العام، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم التشريح، والفيزياء، والتاريخ، والجغرافيا، وغيرها. ينظر: محمود السعران: علم اللغة ص ٦٩، وعلي عبد الواحد وافي: علم اللغة، القاهرة، نهضة مصر، د. ط، د. ت، ص ٣٢.

١٠- محمود حجازي: أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الإثنولوجية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد ٣، العدد ١، ١٩٧٢، ص ١٥٦.

١١- فرحان اليحيى: اللغة الوظيفية والدلالة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد ٤٤٦، حزيران ٢٠٠٨، ص ٨.

١٢- سورة الأعراف: ١٠٧، وسورة الشعراء: ٣٢.

١٣- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد): ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط ١، ١٩٦٥، ص ٤٢٥.

١٤- سورة الأعراف: ٤٠.

١٥- الزمخشري (محمود بن عمر): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبط وتوثيق أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ٢٠٠٦، ج ١ ص ٨٠.

١٦- الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد): معاني القرآن، اعتنى به فاتن محمد اللبون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ٢٠٠٣، ج ١ ص ٢٧٤.

١٧- الزمخشري: الكشاف، ج ١ ص ٨٠.

١٨- السمين الحلبي (يوسف بن محمد): الدر المصون في عُلوم الكتاب المكنون، تحقيق علي معوض وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٣، ج ٣ ص ٢٦٩.

١٩- ابن عاشور (محمد الطاهر): التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، د. ط، ١٩٨٤، الجزء ٨، القسم ٢، ص ١٢٧.

٢٠- سورة المرسلات: ٣٢ - ٣٣.

٢١- الزمخشري: الكشاف، ج ٤ ص ٥١٣.

٢٢- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، القاهرة، مكتبة الآداب، ط ١، ٢٠٠٧، ص ١٤.

٢٣- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص٣٣٧.

٢٤- الخاقاني)محمد طاهر آل شبير(: علم الاجتماع، بيروت، دار مكتبة، ط ١، ١٩٨٧، ص ١.

٢٥- هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، راجعه نصر أبو زيد ومحمد سعد الدين، القاهرة، عالم الكتب، ط ٢، ١٩٩٠، ص ١٢.

٢٦- پول فابر وكريستيان بايلون: مدخل إلى الألسنية، ترجمة طلال وهبة، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٢، ص ١٠٥.

٢٧- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، دار صعب، ط ١، ١٩٦٨، ج ١ ص ٨٧، والقلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف علي طويل، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٩٨٧،ج ٢ ص ٣٥٠.

٢٨- الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٩٠.

٢٩- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص ٤٨.

٣٠- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط ١، ١٩٩٦، ص ص ٢٥ - ٢٦.

٣١- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص ٢٤.

٣٢- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال محمد بشر، القاهرة، دار غريب، ط ١٢، د. ت، ص ١٩١.

٣٣- هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ص ٧٥.

٣٤- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، القاهرة، عالم الكتب، ط ٣، ١٩٩٢، ص ٧١.

٣٥- هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ص ٧٦.

٣٦- من هذا (we obtained some sodium chloride؛ لقد حصلنا على بعض كلوريد الصوديوم) حيث يُعَدُّ استخدام كلمة (obtained؛ حَصَلْنَا) كلمة رسمية، مقارنة بـ(got؛ أخذنا، أو أعطونا)، وتُعَدُّ كلمة (sodium chloride) مصطلحا فنيا، مقارنة بـ(salt؛ أي: ملح)" (المرجع السابق، ص ٨٣).

٣٧- پول فابر وكريستيان بايلون: مدخل إلى الألسنية، ص ١٠٦.

٣٨- الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٩٠.

٣٩- عبد الرحمن الحاج صالح: الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية، ندوة تعليم اللغة العربية، ١٩٨٤، ص ١٠.

٤٠- رابح بومعزة: تيسير تعليمية النحو (رؤية في أساليب تطوير العملية التعليمية من منظور النظرية اللغوية)، القاهرة، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٩، ص ٣٨.

٤١- المرجع السابق، ص ٤٤.

٤٢- القرطاجني (أبو الحسن حازم بن محمد) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، دار الكتب الشرقية، د. ط، ١٩٦٦، ص ٢٥.

٤٣- عبد الجليل منقور: الخطاب والدلالة، ص ١.

٤٤- سورة إبراهيم:٤.

٤٥- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ترجمة زينب عاطف، مراجعة مصطفى محمد فؤاد، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط ١، ٢٠١٧، ص ٥٦.

٤٦- الإمام البخاري (محمد بن إسماعيل): الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ط ٣، ١٩٨٧، ج ١ ص ٤١.

٤٧- ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق محمد عبد الباقي، بيروت، دار المعرفة، ط ١، ١٩٩٠، ج ١ ص ٢٥٥.

٤٨- الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج): الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، تحقيق محمد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٩٨٣، ج ١ ص ١١.

٤٩- الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٦٤.

٥٠- نادر سراج: إشكالية الازدواجية اللغوية في اللسان العربي، ص ٢٢٠، وينظر: http://www.alfusha.net .

٥١- الزغول (محمد راجي): ازدواجية اللغة، نظرة في حاضر اللغة العربية وتطلع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، السنة ٣، عدد مزدوج ٩ و ١٠، أغسطس وسبتمبر، ١٩٨٠، ص ١١٩.

٥٢- المرجع السابق، ص ١١٩.

٥٣- محمود حجازي: علم اللغة العربية، القاهرة، دار غريب، د. ط، د. ت، ص ١٨، ونادر سراج: إشكالية الازدواجية اللغوية في اللسان العربي، ص ٢١٧.

٥٤- علي تعوينات: صعوبات تعلم اللغة العربية لدى تلاميذ الطور الثاني من التعليم الأساسي في المناطق الناطقة بالبربرية والمناطق الناطقة بالعربية (دراسة ميدانية مقارنة)، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، العدد ٢٠، صفر ١٤٢١هـ - مايو٢٠٠٠م، ج ٥ ص ١١٥.

٥٥- الزغول: ازدواجية اللغة، ص ١٢٠.

٥٦- أندريه مارتينه: الثنائية الألسنة والازدواجية الألسنية، ترجمة نادر سراج، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، مركز الإنماء القومي، العدد ١١، ١٩٩٠، ص ٢٤.

٥٧- هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ص ٨٩.

٥٨- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ١١.

٥٩- نادر سراج: إشكالية الازدواجية اللغوية في اللسان العربي، ص ٢١٣.

٦٠- نهاد الموسى: اللغة العربية في العصر الحديث، قيم الثبوت وقوى التحول، عَمَّان، دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٧، ص ١٣٧.

٦١- لعل الخلط بين المصطلحين جاء من ترجمتهما إلى العربية يبدوان كأنهما يحملن معنى واحدًا، فمصطلح (Diglossia) يتركب من سابقة يونانية هي (Di) التي تعني مثنى أو ثنائي، أو مضاعف، و(gloss) التي تعني لغة، ولاحقة هي (ia) للحالة، حاصل الترجمة (حالة لغة مثناه أو مضاعفة) وهذا يعني الثنائية اللغوية.

أما مصطلح (Bilingualism) يتركب من سابقة لاتينية هي (Bi) التي تعني مثنى أو مضاعف، و(lingual) بمعنى لغوي، ولاحقة (ism) الدالة على السلوك المميز أو الحالة، وحاصل الترجمة)سلوك لغوي مثنى أو مضاعف(، وهذا يعني الثنائية اللغوية.

(إبراهيم محمود كايد: العربية الفصحى بين الازدواجية، اللغوية والثنائية اللغوية، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، العلوم الإنسانية والإدارية، المجلد ٣، العدد ١، ذو الحجة ١٤٢٤ ه / مارس ٢٠٠٢، ص ٥٥، وينظر: هادي نهر: علم اللغة الاجتماعي عند العرب، بيروت ، دار الغصون، ط ١، ١٩٨٨، ص ٥١).

٦٢- هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ص ٤٥.

٦٣- المرجع السابق، ص ٤٦.

٦٤- المرجع السابق، ص ٤٥.

٦٥- تكون الدولة ذات اللغة واحدة منعزلةً جغرافيًا كجزر جرينلاند، وسانت هيلينا، أو سياسيًا ككوريا الشمالية، وكوبا.(فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٢٢).

٦٦- ذكر هدسون أن عدد اللغات ما يقارب أربعة أو خمسة آلاف لغة مستخدمة في العالم، في حين لا يزيد عدد دول العالم عن مائة وأربعين دولة (هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ص ٢٥)، لكن اعتمدنا إحصائية فرانسوا جروجون؛ لكونه الأحدث (فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٢١).

٦٧- هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ص ٢٥.

٦٨- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٧٢.

٦٩- المرجع السابق، ص ٥١.

٧٠- المرجع السابق، ص ١٩.

٧١- المرجع السابق، ص ٢٠.

٧٢- يرى بلومفيلد (Bloomfield) أن "الازدواجية اللغوية تعني اتقان اللغة الثانية كاللغة الأولى" (علي تعوينات: صعوبات تعلم اللغة العربية، ص ١١٣).

٧٣- المرجع السابق، ص ١١٣.

٧٤- محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، ص ١٨.

٧٥- هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ص ٩١.

٧٦- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٥٦.

٧٧- محمد علي الخولي: الحياة مع لغتين (الثنائية اللغوية)، الرياض، جامعة الملك سعود، ط ١، ١٩٨٨، ص ١١٨، ومحمد عفيف الدين دمياطي: المحاضرة في علم اللغة الاجتماعي، سورابايا، مطبعة دار العلوم اللغوية، ط ١، ٢٠١٠، ص ٩٣.

٧٨- نهاد الموسى: الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة، عَمَّان، دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٣، ص ١٢٥.

٧٩- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٦١.

٨٠- محمد الخولي: الحياة مع لغتين، ص ١٢١.

٨١- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٧٠.

٨٢- المرجع السابق، ص ٥٧.

٨٣- المرجع السابق، ص ٦٣.

٨٤- المرجع السابق، ص ١٣٣.

٨٥- محمد الخولي: الحياة مع لغتين، ص ١٢٢.

٨٦- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ١٠٧.

٨٧- المرجع السابق، ص ١٠٥.

٨٨- المرجع السابق، ص ١٠٧.

٨٩- دي سوسير: دروس في الألسنية العامة، ص ٢٨، لمزيد من التفاصيل ينظر: صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ٣، ١٩٨٧، ص ٢٠، وحاتم الضامن: علم اللغة، بغداد، مطبعة التعليم العالي بالموصل، ط ١، ١٩٨٩، ص ٣٢

٩٠- نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٥، يناير ٢٠٠١، ص ٢٢٧.

٩١- فلوريان كولماس: اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، مراجعة عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٣، نوفمبر، ٢٠٠٠، ص ٧.

٩٢- دي سوسير: دروس في الألسنية العامة، ص ١١٥.

٩٣- محمد الخضر: دراسات في العربية وتاريخها، دمشق، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٩٦٠، ص ص ١٢ - ١٣.

٩٤- جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، ص ١٤٩.

٩٥- المرجع السابق، ص ١٤٤.

٩٦- المرجع السابق، ص ١٤٥.

٩٧- إبراهيم عبد الله: القاعدة النحوية في ضوء تقييدها بأمن اللبس أو خشية الوقوع فيه، مجلة التراث العربي، دمشق، السنة ٢٦، العدد ١٠١، يناير، ٢٠٠٦، ص ٢.

٩٨- مازن الوعر: قضايا في علم اللسانيات، ص ٤٩.

٩٩- الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد): دلائل الإعجاز، تحقيق سعد كريم الفقي، القاهرة، دار اليقين، ط ١، ٢٠٠١، ص ٣٥.

١٠٠- أحمد عبد السلام: التحليل النحوي العقدي (بحث في أثر المعتقدات في الدرس اللغوي)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، العدد ١٢، ١٩٩٧-١٩٩٨، ص ١٣٦.

١٠١- أحمد أبو زيد: مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن، الرباط، دار الأمان، ١٩٨٩، ص ١٥.

١٠٢- (Switching Languages Can Also Switch Personality) فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ١٢٣.

١٠٣- المرجع السابق، ص ١٠٨.

١٠٤-حوار مع الدكتور رشيد بلحبيب، أُجْرِي الحوار بتاريخ ٨ / ٣ / ٢٠٠٣، منشور على موقع ملتقى أهل الحديث (www.ahlalhdeeth.com).

١٠٥- محمد علي غوري: الاستثمار في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها باكستان نموذجا، مؤتمر اللغة العربية الثالث، إمارة دبي (٧ - ١٠ مايو ٢٠١٤)، ص ٧.

١٠٦- سلمى عطاالله: استثمار اللغة العربية في تعليم الناطقين بغيرها، مؤتمر اللغة العربية الثالث، إمارة دبي (٧ - ١٠ مايو ٢٠١٤)، ص ٤.

١٠٧- يوسف عز الدين: وسائل الإعلام بين العامية والعجمة، بحث منشور بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد ١٠٢، ص ٩.
١٠٨- سلمى عطاالله: استثمار اللغة العربية في تعليم الناطقين بغيرها، ص ٤.
١٠٩- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٧٠.
١١٠- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، د . ط، ١٩٩٦، ج ١ ص ٧٧.
١١١- نادية أحمد طوبا: الطفل العربي واللغات الأجنبية، سلسلة عالم العربية، دار النشر الدولي بالرياض، ١٩٩٣، ص ٣٩.
١١٢- المرجع السابق، ص ٣٨.
١١٣- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٢٠٩.
١١٤- المرجع السابق، ص ٢١٠.
١١٥- صادق عبد الله أبو سليمان: تنشئة الطفل في اللغة (مبدأ سيادة ملكة الفصحى)، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد ١٠١، ج ٢٥١ ص ٣٤.
١١٦- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٨٠.
١١٧- المرجع السابق، ص ٨١.
١١٨- محمود كامل الناقة: تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، معهد اللغة العربية، وحدة البحوث والمناهج، ١٩٨٥، ص ٥١.
١١٩- علي أبو المكارم: تعليم النحو العربي، القاهرة، مؤسسة المختار، ط ١، ٢٠٠٦، ص ٢٩.
١٢٠- سلمى عطاالله: استثمار اللغة العربية في تعليم الناطقين بغيرها، ص ص ٢- ٣.
١٢١- أحمد بهاء الدين: المثقفون والسلطة في عالمنا العربي، مقال منشور في سلسلة كتاب العربي، الكويت، العدد ٣٨، ١٩٩٩، ص ٧.
١٢٢- سلمى عطاالله: استثمار اللغة العربية في تعليم الناطقين بغيرها، ص ٧.
١٢٣- نبيل علي: العرب وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٨٤، أبريل ١٩٩٤، ص ٣٢٧.
١٢٤- ابن منظور: (جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، تحقيق ياسر أبو شادي، ومجدي السيد، القاهرة، المكتبة التوفيقية، د. ط، د. ت، المقدمة منه.
١٢٥- محمد العدناني: معجم الأخطاء، بيروت، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٠ ، ص ٥.
١٢٦- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون): المقدمة، بيروت، دار صادر، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٤٤٨.
١٢٧- خليل عمايرة: في نحو اللغة وتراكيبها، المملكة العربية السعودية، جدة، عالم المعرفة، ط ١، ١٩٨٤، ص ٥٦.
١٢٨- محمد حسن الطيان: كيف تغدو فصيحًا عفَّ اللسان، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٨٦.
١٢٩- خالد الزواوي: إكساب وتنمية اللغة، مصر، الإسكندرية، مؤسسة حورس الدولية للنشر، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٢٧.
١٣٠- عبد الهادي التازي: صراع اللُّغات في وسائل الإعلام، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد ٩٣، ج ٢٢٢ ص ٢.
١٣١- فرانسوا جروجون: ثنائيو اللغة، ص ٢١٩.